

القرآن الكريم

بين ترتيب النزول وترتيب التلاوة

أ.د. صلاح روّاي *

لسور القرآن الكريم نظامان من الترتيب ، ولكل نظام منهما غاية عظيمة ، وهدف سام ، كانا وراء اللجوء إليه والأخذ به .

الأول : ترتيب النزول

ويعنى ترتيب السور بحسب ما نزل أولاً منها ، ثم ما نزل ثانياً . . وهكذا ، حتى آخر ما نزل من القرآن الكريم .

*أستاذ النحو العربى بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

الثانى : ترتيب التلاوة :

أى بحسب ترتيب السور فى المصحف الذى بأيدي الناس ، الذى يتلون القرآن ويحفظونه عليه.

وسنفرد لكل نظام منهما قولاً يخصه ، موضحين الغاية والهدف منه ، مؤيداً بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة من الأحاديث النبوية، وأقوال الصُحابة - رضوان الله عليهم أجمعين .

أولاً : ترتيب النزول :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .^(١) وقد ذهب المفسرون فى كيفية إنزال القرآن فى هذه الليلة مذاهب أربعة:

أولها : أن الله تعالى أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم أخذ جبريل ينتزل به على محمد ﷺ منجماً بحسب الوقائع والإحداث ، على ما أخرجه الحاكم والبيهقى ، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.^(٢)

ثانيها : أن القرآن أنزل إلى بيت العزة فى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ فى عشرين ليلة قدر ، أو ثلاثاً وعشرين ، أو خمساً وعشرين . فى كل ليلة ما يقدر الله إنزاله فى السنة كلها ، ثم نزل بعد ذلك على النبى ﷺ منجماً على مدار السنة . بهذا قال فخر الدين الرازى ، ونقله

(١) سورة القدر : الآية الأولى .

(٢) البرهان : ٢٩٩ / ١ .

القرطبي عن مقاتل بن حبان . (١)

ثالثها : أنه ابتدئ في إنزال القرآن على النبي ﷺ في ليلة القدر، ثم تكرر نزوله عليه بعد ذلك منجماً ، وبه قال الشعبي . (٢)

رابعها : أنه أنزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة في ليلة القدر إلى السفرة الكرام الكاتبين في سماء الدنيا ، فنجمته السفارة على جبريل في عشرين ليلة ، ثم نجمه جبريل على النبي في عشرين سنة . وهذا ما حكاه الماوردي ، بناء على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه . (٣)

نخلص مما تقدم أن القرآن الكريم أنزل على النبي ﷺ منجماً على مدى عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين سنة ، أو خمس وعشرين ، بحسب مدة إقامته في مكة بعد البعثة . وقد ثبت أن من الصحابة من كتب لنفسه مصحفاً مرتباً فيه السور بحسب نزولها كمصحف على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، الذي كان أوله سورة (العلق) ثم سورة المدثر ، ثم ن ، ثم المزل ، ثم المسد ، ثم التكوير . (٤)

ومعلوم أن من السور ما لم تكن تنزل بكاملها مرة واحدة ، وإنما كان ينزل أولها ، ثم يزداد فيها من الآيات بحسب ما يشير به جبريل

(١) الإيقان : ٤٠ / ١ .

(٢) البرهان : ٢٢٨ / ١ .

(٣) الإيقان : ٤٠ / ١ .

(٤) الإيقان : ٦٢ / ١ .

على النبي ﷺ من قوله : ضع هذه الآية بعد آية كذا فى سورة كذا ؛
وفى هذا يقول ابن عباس : " كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة ، كتبت
بمكة ، ثم يزيد الله فيها ما شاء " . (١)

وقد ذهب بعض الصحابة والتابعين إلى سرد سور القرآن
بترتيبها النزولى ، كابن عباس ، وجابر بن زيد ، وعكرمة ، والحسين
بن أبى الحسن ، وقتادة ، ومنهم من نظم هذا السرد أبياتاً كابن الحصار ،
وبرهان الدين الجبرى الذى نظمه قصيدة سماها : تقريب المأمول فى
ترتيب النزول ، (٢) وأشهر هؤلاء ابن عباس الذى قال : " كان أول ما
أنزل من القرآن سورة اقرأ باسم ربك ، ثم ن ، ثم يا أيها المزمّل ، ثم
يا أيها المدثر ثم الحمد ، ثم تبت يدا أبى لهب ، ثم إذا الشمس كورت ،
ثم سبح اسم ربك الأعلى ، ثم والليل إذا يغشى ، ثم والفجر ، ثم
والضحى ، ثم ألم نشرح ، ثم والعصر ، ثم والعاديات ، ثم إنا أعطيناك ،
ثم ألهاكم التكاثر ، ثم رأيت الذى يكذب ، ثم قل يا أيها الكافرون ، ثم
ألم تر كيف فعل ربك ، ثم قل أعوذ برب الفلق ، ثم قل أعوذ برب
الناس ، ثم قل هو الله أحد ، ثم والنجم ، ثم عبس ، ثم إنا أنزلناه فى ليلة
القدر ، ثم والشمس وضحاها ، ثم والسماء ذات البروج ، ثم والتين ، ثم
لإيلاف قريش ، ثم القارعة ، ثم لا أقسم بيوم القيامة ، ثم ويل لكل
همزة ، ثم والمرسلات ، ثم ق ، ثم لا أقسم بهذا البلد ، ثم والسماء
والطارق ، ثم اقتربت الساعة ، ثم ص ، ثم الأعراف ، ثم قل أوحى ،

(١) الإتيان : ١٠ / ١ .

(٢) الإتيان : ١١ / ١ ، ٢٥ .

ثم يس ، ثم الفرقان ، ثم الملائكة ، ، ثم كهيعص ، ثم طه ، ثم الواقعة ،
ثم طس الشعراء ، ثم طس ، ثم القصص ، ثم بنى إسرائيل ، ثم يونس ،
ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الحجر ، ثم الأنعام ، ثم الصافات ، ثم لقمان ،
ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم حم ، ثم المؤمن ، ثم حم السجدة ، ثم حم عسق ،
ثم حم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ، ثم الذاريات ،
ثم الغاشية ، ثم الكهف ، ثم النحل ، ثم إنا أرسلنا نوحا ، ثم سورة
إبراهيم ، ثم الأنبياء ، ثم المؤمنين ، ثم تنزيل السجدة ، ثم الطور ، ثم
تبارك الملك ، ثم الحاقة ، ثم سأل ، ثم عم يتساءلون ، ثم النازعات ، ثم
إذا السماء انفطرت ، ثم إذا السماء انشقت ، ثم الروم ، ثم العنكبوت ، ثم
ويل للمطففين ، فهذا ما أنزل الله بمكة ، ثم أنزل بالمدينة : سورة
البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم
النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم القتال ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ،
ثم الإنسان ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله ،
ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم
التحريم ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الصف ، ثم الفتح ، ثم المائدة ، ثم
براءة " . (١)

الحكمة فى إنزال القرآن منجما :

تولى الله - تبارك وتعالى - بيان الهدف والحكمة من هذا
الإنزال المنجم للقرآن الكريم ، حينما تساءل الكفار الذين ألفوا فى
حياتهم اليومية أن القصيدة تلقى بكاملها جملة واحدة ، وعهدوا الكتب

السماءية تنزل على الرسل جملة واحدة أيضاً ، على ما سمعوه من اليهود أن التوراة نزلت على موسى جملة واحدة ، فقالوا : (لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)^(١) ، فقال الله - تبارك وتعالى - مبيناً لرسوله الكريم الهدف والحكمة من هذا الإنزال المنجم : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ۝ ﴾ .^(٢)

قال أبو شامة^(٣) : " أى : لنقوى به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى بالقلب ، وأشد عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من الجنب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل " .^(٤)

وثمة هدف سام ، وحكمة بالغة فى هذا النزول المنجم ، ألا وهو تيسير حفظه على النبي ﷺ واستظهاره له ، حيث كان أمياً لا عهد له بالقراءة ولا الكتابة ، فلو أنزل عليه القرآن جملة واحدة لعسر عليه حفظه ، وشق عليه استظهاره ، بخلاف غيره من الرسل ممن كان كاتباً

(١) سورة الفرقان : آية ٣٢ .

(٢) سورة الفرقان : آية ٣٢ .

(٣) عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدس ، فقيه شافعى ، له المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز ، وشرح الشاطبية ، توفى سنة ٦٦٥ هـ - شذرات الذهب : ٥ / ٣١٨ .

(٤) الإقتان : ١ / ٤١ .

قارئاً ، وفى هذا يقول ابن فورك ^(١) : " أنزلت التوراة جملة ، لأنها
نزلت على نبي يقرأ ويكتب - وهو موسى - ، وأنزل القرآن منجماً لأنه
أنزل غير مكتوب على نبي أمي " . ^(٢)

وقيل : لم ينزل جملة واحدة ، لأن منه الناسخ والمنسوخ ،
ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه
ما هو إنكار لقول قيل ، أو فعل فعل ، ومن ثم قال ابن عباس : " ونزله
جبريل بجواب كلام العباد أو عملهم " ، وقد فسر به قول الله - تعالى :
﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ . ^(٣)

ومن أجل الأهداف والحكم فى إنزال القرآن مفرقاً ما صرح به
مكى بن أبى طالب ^(٤) فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) بقوله : " . . .
فإنه أدعى إلى قبوله إن نزل على التدرج ، بخلاف ما لو نزل جملة
واحدة ، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من
الفرائض والمناهى " . ^(٥)

(١) محمد بن الحسن بن فورك ، ويكنى أبا بكر ، متكلم أصولي ، له فى معانى القرآن
وأصول الفقه أكثر من مائة كتاب . توفى سنة ٤٠٦ هـ جريية . (ابن خلكان :

٤٨٢ / ١).

(٢) الإتيان : ٤١ / ٢.

(٣) سورة : الفرقان آية : ٣٣ ، والإتيان : ٤٢ / ١.

(٤) حموش بن محمد بن مختار القيسى المقرئ ، من القيروان ، كثير التأليف فى علوم

القرآن ، توفى سنة ٤٣٧ هـ . (إنباء الرواة : ٣ / ٣١٣).

(٥) صحيح البخارى : ١٨٥ / ٦.

ويؤيد قول مكى ما روى عن عائشة ، رضى الله عنها ، : "إنما أنزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شئ (لا تشربوا الخمر) ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو أنزل (لا تزنا) لقالوا : لا ندع الزنا أبداً " (١) ، وما أثر عن على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه : " أنزل القرآن خمساً خمساً إلا سورة الأنعام ، ومن حفظه خمساً خمساً لم ينسه " (٢) ، وما أخرجه ابن عساكر عن طريق أبى نصره قال : " كان أبو سعيد الخدرى يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشى ، ويخبرنا أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات " . (٣)

ترتيب التلاوة :

لا ريب أن ترتيب التلاوة مرتبط ، بل مترتب على جمع القرآن ، ولا سيما مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومن ثم نرى أنه من الواجب أن نتناول موضوع جمع القرآن بشئ من التفصيل ، ومعلوم أن القرآن قد جمع ثلاث مرات :

(١) الإتيان : ٤٣ / ١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر نفسه .

الجمع الأول :

كان ذلك فى عهد النبى ﷺ ، حيث كان جبريل ينزل عليه بالآية أو الآيات أو السورة بكاملها ، فيملئها الرسول على كتبه الوحي ، فيكتبونها فى اللخاف والعسب والأكتاف والأقتاب ، ثم تحفظ عند رسول الله ﷺ وكان النبى يوقف الكتبة على ترتيب الآيات تبعاً لتوقيف جبريل ، فقد أخرج الحاكم فى (المستدرک) عن زيد بن ثابت أنه قال : " كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع " . (١)

أى : نرتب السور والآيات وفق إشارة النبى ﷺ وتوقيفه فى شئ من جلد أو ورق أو كاغد ، مما كان ييسر لكتاب الوحي من أدوات الكتابة (٢) ، ويقول المحاسبى (٣) : " . . . وكان ذلك بمثابة أوراق وجدت فى بيت رسول الله ﷺ ، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شئ " . (٤)

وقد أثر أن جبريل كان ينزل على النبى فى شهر رمضان ليستعرض معه ما نزل من القرآن طيلة العام . ولما كان العام الذى لحق فيه النبى بالرفيق الأعلى ، أتاه جبريل واستعرض معه القرآن كله ،

(١) البرهان : ٢٣٧ / ١ .

(٢) مباحث فى علوم القرآن لصبحى الصالح : ٦٩ .

(٣) الحارث بن أسد المحاسبى ، من أكابر الصوفية ، كان عالماً بالأصول والمعاملات ،

أستاذ أكثر البغداديين (توفى ببغداد سنة ٣٤٣ هـ ، الأعلام : ١٥٣ / ٢) .

(٤) البرهان : ٢٣٨ / ١ ، الإتيان : ٥٨ / ١ .

وقيل استعرضه مرتين ، وسميت هذه العرضة الأخيرة " . (١) وأخرج الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : " كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى " إلى آخرها . (٢)

ومعلوم أن النبي ﷺ قرأ سوراً عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة، أو فى خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة ، فكان ذلك دليلاً صريحاً على أن ترتيب آياتها توقيف من قبل الله ، تبارك وتعالى ، وأنه بذلك بلغ مبلغ التواتر .

نخلص من ذلك إلى أن القرآن الكريم كتب كله فى عهد رسول

الله ﷺ غير مجموع فى مصحف واحد ، فقد أغنى عن ذلك حفظ الصحابة واستظهارهم لهم ، على ما وقفهم عليه النبي من ترتيب سورته وآياته بتوقيف من الله ، تبارك وتعالى ، وعن هذا يقول الزركشى :

" وإنما لم يكتب فى عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يفضى إلى تغييره فى كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ . (٣)

وقال الخطابى : " إنما لم يجمع النبي ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله

(١) الإتيان : ٦٢ / ١ .

(٢) الإتيان : ٥٧ / ١ .

(٣) البرهان : ٢٦٢ / ١ .

بوفاته . ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك " . (١)

الجمع الثانى :

وذلك فى عهد أبى بكر الصديق رضي الله عنه سنة اثنتى عشرة للهجرة بعد موقعة اليمامة ، حيث استشهد فيها سبعون من حفظة القرآن الكريم من الصحابة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء إلى أبى بكر يقترح عليه جمع القرآن الكريم حتى لا يضيع بموت الحفظة ؛ ويروى زيد بن ثابت قصة هذا الجمع بقوله : " أرسل إلى أبو بكر ، مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبوبكر رضي الله عنه إن عمر أتانى فقال : إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبوبكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك . وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبوبكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى

بكر وعمر . فتنبعت القرآن أجمعه من العصب والخاف وصدور الرجال . . . فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر . (١)

وروى أن أبابكر قال لعمر وزيد بن ثابت : " اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه " . (٢)

وروى أن عمر بن الخطاب قدم إلى المسجد فقال : " من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به " ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان . (٣)

وفسر ابن حجر العسقلاني الشهيدين بأنهما : الحفظ والكتابة . (٤)
وفسرهما السخاوى فى (جمال القراء) بأنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ . (٥)

وروى الحارث المحاسبى أن مصحف أبى بكر كانت طريقة كتابته مشتملة على وجوه القراءات المطلقة على الحروف السبعة التى نزل بها القرآن على نحو ما كان عليه فى الجمع الأول على

(١) صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن ، ومسند أحمد : ١ / ١٣ ، وطبقات ابن سعد : ٢٠١ / ٣ .

(٢) الإتيقان : ٥٨ / ١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصاحف لابن أبى داود : ٤ .

(٥) الإتيقان : ٥٨ / ١ .

وأخرج ابن أشتة قال : " لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق ، قال أبو بكر : التمسوا له اسماً ، فقال بعضهم : (السفر) . قال : ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوا ذلك ، وقال بعضهم : (المصحف) فإن الحبشة يسمون مثله (المصحف) ، فاجتمع رأيهم على أن سموه (المصحف)" . (٢)

الجمع الثالث :

وذلك في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد علمنا أن طريقة الكتابة في كل من الجمعين الأول والثاني كانت مشتملة على وجوه القراءات المطلقة على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن ، فلما كان في عهد عثمان اختلف الناس في القراءة ، ففرع عثمان من هذا الاختلاف ، وهذا أنس بن مالك يروي لنا القصة بقوله :

" اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون ، فبلغ ذلك عثمان بن عفان ، فقال : عندي تكذيبون به وتلحنون فيه ، فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً ، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً " . (٣)

(١) الإتيان: ٦٠ / ١ .

(٢) الإتيان: ٥٨ / ١ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن ، والمصاحف لابن أبي داود : ١٨ .

وروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : " لا تقولوا في عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا ، قال : ما تقولون في هذه القراءة ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً ، قلنا : فما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف . قلنا : فنعم ما رأيت " . (١)

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازی أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش . فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان المصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " .

ولما كان المصحف الإمام حمّال أوجه في قراءته نظراً لكونه
خلوا من النقط والتشكيل ، لم يكتف عثمان بإرسال نسخة منه إلى كل
مصر ، وإنما أرسل معه حافظاً يوافق قراءته ، فكان زيد بن ثابت
مقرئ المصحف المدني ، وعبدالله بن السائب مقرئ المصحف المكي ،
والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامي ، وأبو عبدالرحمن السلمي مقرئ
الكوفي ، وعامر بن عبدالقيس مقرئ البصري .^(١)

هل ترتيب السور في المصحف توقيفي أو من عمل الصحابة ؟

انقسم العلماء حيال ترتيب التلاوة - أي ترتيب السور في
المصحف - إلى فرق ثلاثة :

الأول : يقول بأن هذا الترتيب هو من عمل الصحابة . ويمثل
هذا الفريق الإمام مالك بن أنس ، والقاضي أبو بكر الباقلاني - في أحد
قوليهِ - ، وابن فارس القزويني ، حيث يقول ابن فارس :

" جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف السور ، كتقديم
السبع الطوال ، وتعقبها بالمتئين ، فهذا الذي تولته الصحابة . أما الجمع
الآخر ، وهو جمع الآيات في السور ، فهو توقيفي ، تولاه النبي ﷺ
كما أخبر به جبريل عن ربه ، ولذلك اختلاف مصاحف السلف في
ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف عليّ ،
كان أوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن ، ثم المزمّل ، ثم تبت ، ثم التكوير ،
وهكذا إلى آخر المكي والمدني ، وكان أول مصحف ابن مسعود :

(١) مناهل العرفان للزرقاني : ١ / ٣٩٦ .

البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، على اختلاف شديد ، وكذا مصحف
أبى وغيره " . (١)

ويستدل هذا الفريق إلى جانب اختلاف مصاحف السلف بما
روى عن أبى محمد القرشى أنه قال : " أمرهم عثمان أن يتابعوا السبع
الطوال ، فجعلت سور الأنفال وسورة التوبة فى السبع ولم يفصل بينهما
بسم الله الرحمن الرحيم " . (٢)

الثانى : يقول بأن ترتيب أكثر السور توقيفى ، وبعضها يمكن
أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة ، ويمثل هذا الفريق ابن عطية ،
والبيهقى ، وأبو جعفر بن الزبير .

الثالث : يقول بأن ترتيب السور فى المصحف توقيفى ، ويمثل
هذا الفريق القاضى أبوبكر الباقلانى - فى أحد قوليه - وأبوبكر بن
الأنبارى ، والكرمانى ، والطيبى ، حيث يقول ابن الأنبارى :

" أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقّه فى بضع
وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر ،
ويوقف جبريل النبى ﷺ على موضع الآية والسورة ، فانساق السور
كانساق الآيات والحروف ، كله عن النبى ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها
فقد أفسد نظم القرآن " . (٣)

(١) الإتيان : ٦٢ / ١ .

(٢) الإتيان : ٦٢ / ١ .

(٣) المصدر السابق .

وقال الكرمانى : " ترتيب السور هكذا . هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه ، وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين ، وكان آخر الآيات نزولاً : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾^(١)، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدين " .^(٢)

الحكمة فى ترتيب التلاوة :

أثر عن السلف الصالح قولهم : " التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر " ، أى أن التعليم فى الصغر يثبت فى الحافظة ويدوم على مر الأيام ، ولا يمحو من الذاكرة مهما طال الزمن ، حيث تكون حافظة الطفل خالية من المعارف والمدرجات كالصفحة البيضاء ، قابلة للإمساك بكل ما يلقى فيها ، وفى هذا يقول الشاعر :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى . ∴ فصادف قلباً خالياً فتمكنا

هذا بخلاف ما إذا كان العلم فى الكبر ، فهو مظنة النسيان والمحو من الذاكرة بمرور الزمن ، حيث تكون الحافظة قد شغلت بأنواع المعارف وشتى المدرجات ، ولم يعد بها مكان للحفظ والاستظهار .

(١) سورة : البقرة : آية ٢٨١ .

(٢) الإتيان : ١ / ٦٢ .

ومن ثم يدفع الناس بصغارهم إلى كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم ،
حتى يتسنى لهم حفظ كتاب الله الكريم واستظهاره قبل أن تشغل
صفحتهم البيضاء بغيره من العلوم الدنيوية ، والمعارف المعيشية ؛ إذ
أننا - على مدى التاريخ - لم نسمع بمن حاول حفظ القرآن الكريم فى
سن متقدمة وسلم له ذلك مهما قاسى وعانى فى سبيل ذلك ، حيث لم تعد
حافظته قادرة على الإمساك بما حفظه ، والاحتفاظ بما استظهره .

فضلاً على المنهج الملتزم فى جميع كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم
الذى يبدأ فى تحفيظ الصغير بالمفصل - وهو السور القصار - ثم
يتدرج معه إلى الأطول فالأطول حتى يصل إلى المثانى ، ثم إلى
المئين ، ثم إلى السور الطوال ، فهذا أدعى إلى ترسيخ الحفظ فى
حافظة الصغير ، وتثبيت التحصيل فى ذاكرته .

علاوة على تشجيع الصغير على مداومة الحفظ والاستمرار فيه ،
حيث كلما انتقل من سورة إلى أخرى ، انشرح صدره ، وسعدت نفسه ،
وأقبل على حفظ السورة الجديدة فى غبطة وسرور ، واستقبلها بهمة
عالية ، واستعداد متجدد ؛ لما أننا - على مدى التاريخ - لم نصادف من
حاول حفظ القرآن الكريم بادئاً بسورة البقرة ، ومتدرجاً فى الحفظ نزولاً
إلى قصار السور وسلم له ذلك مهما قاسى فى هذا الأمر وعانى ، لما
فى ذلك من مخالفة للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهى التدرج فى
كل الأمور صعوداً من الأسهل إلى الأصعب ، وفى هذا يقول جلال
الدين السيوطى : " . . . ثم ظهرت لذلك حكمة فى التعليم وتدرج

الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيراً من الله على عباده ،
لحفظ كتابه " . (١) وقال الزركشى : " فإن قلت : فهلا كانت الكتب
السابقة كذلك؟ قلت : لوجهين . أحدهما : أنها لم تكن معجزات من جهة
النظم والترتيب ، والآخر : أنها لم تيسر للحفظ " . (٢)

وقال الزمخشري : " . . . ومنها أن القارئ إذا ختم سورة
أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر ، كان أنشط له ، وأبعث على
التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع
ميلاً أو فرسخاً نفس ذلك فيه ونشط للسير ، . . . ومنها أن الحافظ إذا
حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظم
عنده ما حفظه " .

الأسرار الإلهية في كل من ترتبى النزول والتلاوة :

خلصنا مما تقدم إلى أن ترتب سور القرآن الكريم عند نزوله ،
وترتيبها في المصحف كلاهما ترتب توقيفي من قبل النبي ﷺ على ما
أخبره به جبريل عن رب العزة ، تبارك وتعالى ، وطالما أن ذلك
توقيف من قبل الله - عز وجل - ليس فيه ثمة تدخل من جانب البشر ،
إذن لا بد أنه ينطوي على أسرار لا قبل بها لبشر ، ولا يحيط بها سوى
رب القوى والقدرة .

(١) الإتيان : ١ / ٦٦ .

(٢) البرهان : ١ / ٢٦٦ ، والإتيان ١ / ٦٦ .

« ولعل من أجل هذه الأسرار الإلهية في هذا الأمر ، هو الوحدة أو الترابط والتناسق بين السور في كلا الترتيبين ، بحيث تبدو كما لو أنها نظمت في خيط واحد ، يأخذ بعضها بحجز بعض ، في وحدة تامة ، وتناسق وثيق ؛ وما علينا إلا أن نفرد قولا لكل من الترتيبين ، نستعرض فيه شيئا من هذه الأسرار على سبيل التمثيل ، وليس الحصر ، إذ ربما من الله علينا بإتاحة الفرصة لاستعراض هذه الأسرار في كل سور القرآن كله على الترتيبين .

أولا : ترتيب النزول :

لن نعظم أن نزول القرآن كان منجما بحسب الوقائع والأحداث ، أو إجابات على أسئلة تثار ، أو تشريع يسن لإصلاح حال المجتمع ، مما قد يوحي بأنه من غير الممكن أن يكون ثمة ترابط أو تناسق بين ما نزل وفقا لهذه الأمور المتباينة ، مما حدا بواحد من كبار العلماء كعمر الدين ابن عبد السلام أن يقول :

« إن ربط آيات القرآن على ترتيب نزولها تكلف لا يليق ، إذ أنه يستلزم في حسن الكلام أن يقع في أمر متحد ، مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض . » (١)

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي (الدراسة) ص ٣٠ .

سأنا في خطتنا . نحن نعلم ذلك

في : - المذبح غابت - سائر الأضواء

ولكن الشيخ ولي الدين الملوى يرد هذا الزعم بقوله :

" قد وهم من قال : لا يطلب للآية الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المفارقة ، وفصل الخطاب أنه على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً " . (١)

ونحن نضم صوتنا إلى صوت الشيخ الملوى ، فنقول وبالله التوفيق :

نزل القرآن بعضه بمكة ، وبعضه بالمدينة المنورة ، وما نزل بمكة نزل في بيئة كافرة ، وأمة مشركة ، تعبد الأصنام ، وتجلها ، وتعتقد تمام الاعتقاد في نفعها وضررها ، فحينما تنزل رسالة تبشر بدين جديد ، يدعو إلى نبذ هذه الآلهة المصنوعة ، التي على إجلالها وتعظيمها تقوم حياة القوم ، وترتب معيشتهم ، وتؤكد مكانتهم وسيادتهم ، لابد أن تمثل هذه الرسالة الجديدة منهجاً لتأسيس الدعوة الجديدة ، وتكون وسيلة إقناع بهذه العقيدة القادمة ، وطريقة مثلى للتبشير بها والذير بسوء ما عليه القوم ، حتى إذا تاب الناس إلى رشدهم ، ودخلوا في الدعوة الجديدة ، صارت هذه الرسالة السماوية أسلوب حياة وبناء وحضارة ، ودستوراً يحكم العلاقات بين أفراد المجتمع ، بما يحقق لهم حياة سعيدة في الدنيا والآخرة ، وهذا ما تكفل به الشطر الذي نزل بالمدينة المنورة .

(١) المصدر السابق.

فإذا لمعنا النظر ، وأعملنا الفكر فى أول ما نزل من القرآن الكريم ، وهو قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . (١) وجدنا أن ذلك مما يطلق عليه البلاغيون (براعة الاستهلال) ، حيث إن من عهد إليه بهذه الرسالة رجل أمى لا عهد له بقراءة ولا كتابة ، ونزل عليه جبريل ومعه رقعة من الديباج الأخضر مكتوب فيها شئ من القرآن ، وقال له : اقرأ ، فرد الرسول الكريم : ما أنا بقارئ - مرتين ، فتلا جبريل عليه هذه الآيات ، أى " استعن على القراءة باسم ربك الذى خلق الكائنات من العدم ، وخلق الإنسان من حيوان كالعلقة ، اقرأ وسيعينك ربك الأكرم على ذلك ، فهو الذى علم الإنسان كيف يخط بالقلم ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

وما أن أقرأ جبريل محمدا هذه الآيات ، حتى نزل محمد مسرعا إلى زوجته خديجة يرتعد ويرتجف من هول ما حدث ، وقال : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى ، ولما ذهب عنه الخوف ، وهدأت نفسه ، أخذت خديجة تستوضحه الأمر ، فحكى لها القصة .

ولم يمض إلا وقت يسير ، حتى شاع الخبر فى أنحاء مكة ، فحدث بينهم لغط شديد فى تفسير ما حدث ، ولم يجد كفار مكة ومشركوها تفسيرا لهذه الظاهرة إلا أن محمدا قد مسه شئ من الجنون ، فهاله أن يصفه قومه بالجنون ، وهو من عهدوه رجاحة فى العقل ، وسلامة فى الفكر ، وصدقا فى القول ، وحفظا للأمانة .

(١) سورة العلق : الآيات ١ - ٤ .

فأراد الله - تبارك وتعالى - أن يطمئن رسوله على سلامة عقله، وبراعته من الجنون ، وأنه أعظم قومه أخلاقا ، بعد أن يعلمه أن دعوته الجديدة قوامها العلم والمعرفة واستشراف حقائق الكون ، معبرا عن ذلك بأداة العلم وهو القلم ، ومن ثم نزلت ثانية السور المكية وهى سورة القلم، حيث افتتحها - سبحانه - بالقسم بذاته العلية ^(١) ، وبالقلم ، وبالكتابة وذلك لشرف العلم وأدواته ، فيقول - سبحانه - : ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . ^(٢)

ثم يحذره رب العزة من الكفار العالمين بصدق دعواه ، ثم يخفون الحقائق خوفا على جاههم وسلطانهم ومكانتهم كالوليد بن المغيرة الذى سمع القرآن فأعجبه وأثنى عليه بقوله : " إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أدناه لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول بشر " ، ولما زجره أبو جهل ، وذكره بالأرستقراطية القرشية ، نكص على عقبيه ، وعاد يحلف لهم ويقسم أن ما نزل على محمد إن هو إلا أساطير الأولين ، حيث يقول - جل وعلا- : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه

^(١) انظر بحثنا لنا بعنوان (نون الوقاية . . ليست للوقاية ، منشور بحوليات دار العلوم -

العدد العاشر ١٩٨٢ ، توصلنا فيه إلى أن المتكلم هو حرف النون).

^(٢) سورة القلم : الآيات ١ - ٤ .

آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم) . (١)

ثم يبين الله - تعالى - لنبيه حال المشركين المكذبين فى الدنيا ،
وما ينتظرهم فى الآخرة بقوله - تعالى - : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا
الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدي
متين ﴾ . (٢)

ثم يأمره - سبحانه - بالصبر على نشر الدعوة الجديدة ،
ويحذره من السأم والضجر منها كحال سيدنا يونس بن متى ، حيث
يقول - سبحانه - ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ
نادى وهو مكظوم . لو لا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو
مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ . (٣)

ثم ختم السورة ببيان دهشة الكافرين عند سماعهم القرآن حتى
اتهموه بالجنون ، وما هذا القرآن إلا تذكرة لهم ولغيرهم من العلمين ،
حيث يقول : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا
الذكر ويقولون إنه لمجنون . وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ . (٤)

أمن بالدعوة الجديدة جمع قليل ، وثارت فى وجهها عاصفة من
العداء والمقاومة التى من شأنها أن تفت فى عزيمة أقوى الرجال

(١) سورة القلم : الآيات ١٠ - ١٦ .

(٢) سورة القلم : الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) سورة القلم : الآيات ٤٨ - ٥٠ .

(٤) سورة القلم : الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

وأشدهم صلابة ما لم يكن مؤمنا بقوة عليا قاهرة ، هي أقوى من كل القوى البشرية مجتمعة.

ومع العناية الرحيمة الفائقة من الله - تعالى - على رسوله ﷺ فقد وجهه إلى التزام منهج تربوى جديد ، من شأنه أن يجعل الإنسان على صلة دائمة بمصدر هذه القوة القاهرة ، مستعدا للوفاء بأعظم الأعمال ، والثبات أمام أشد التبعات والأهوال ، فنزلت سورة (المزمل) وفى صدرها هذا المنهج الجديد للرسول وأتباعه الذين أقيمت على كواهلهم التبعات الأولى للدعوة الجديدة . (١)

وهذا المنهج التربوى يتمثل فى قيام الليل ، وترتيل القرآن ، استعدادا لقول ثقيل سوف يلقى عليه ﷺ وهو الأمر بالجهر بالدعوة الجديدة ، وإنذار القوم من مغبة النكوص عن الدخول فيها ، حيث يقول - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلِ . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ﴾ . (٢)

ثم عاد - سبحانه - للحديث عن أحوال الكافرين من أمثال الوليد ابن المغيرة ، وما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة ، حيث يقول : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعما ذا غصة

(١) تناسق السور (الدراسة) : ٣٢ .

(٢) سورة المزمل : الآيات ١ - ٦ .

وعذابا أليما». (١)

ثم يتم - سبحانه - المنهج التربوي الذي ارتضاه للمؤمنين بالأمر بالألا يشقوا على أنفسهم ، فيقرأوا ما تيسر من القرآن . لأنهم سوف يكون منهم مرضى ، ومنهم من يضرب في الأرض ، ومنهم من يقاتل في سبيل الله ؛ وأن يستغفروا الله الذي سوف يغفر لهم ، حيث يقول : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقراءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ۞. (٢)

وبعد أن أرسى - سبحانه - لنبية ومن معه هذا المنهج التربوي العظيم استعدادا للقول الثقيل الذي سيلقى عليهم ، نزلت سورة المدثر ، التي تتصدر بذلك القول الثقيل ، حيث تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ يا أيها المدثر . قم فأندر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ۞. (٣)

ثم يربط الله - تبارك وتعالى - هذه السورة بما قبلها ، حيث يأمره بالصبر على تحمل هذه التبعة فيقول في (المزمل) : ﴿ فاصبر

(١) سورة المزمل : الآيات ١١ - ١٣ .

(٢) سورة المزمل : الآية ٢٠ .

(٣) سورة المدثر : الآيات ١ - ٥ .

لحكم ربك ﴿^(١)﴾ ، ثم يقول فى هذه : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ ^(٢) ، كما يربط بينهما بالحديث عن الوليد بن المغيرة الذى عاد بعد زجر أبى جهل له ، ففكر وهذى ، وادعى أن القرآن سحر ، وأنه من قول البشر ، حيث يقول - تبارك وتعالى - : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له ملاما ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر ﴾ ^(٣) .

ثم عاد - سبحانه - ليربط السور الثلاث : القلم ، والمزمل ، والمدثر فى قرن واحد ، حيث تحدث فى ثلاثتها عن القرآن ، فقال فى (القلم) : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ^(٤) ، وقال فى (المزمل) : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ ^(٥) ، وقال فى (المدثر) : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ ^(٦) ، وقال فيها أيضا : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ ^(٧) .

(١) سورة القلم : الآية ٤٨ .

(٢) سورة المدثر : الآية ٧ .

(٣) سورة المدثر : الآيات ١١ - ٢٦ .

(٤) سورة القلم : الآية ٥٢ .

(٥) سورة المزمل : الآية ١٩ .

(٦) سورة المدثر : الآية ٤٩ .

(٧) سورة المدثر : الآية ٥٤ .

وبعد الأمر بقيام الليل ، وتلاوة القرآن الكريم ، كان لابد من وجود صيغة ، محددة يلتزم بها الجميع فى الصلاة ، ولابد من وجود قرآن يتلى ، إذ السور الأربعة ما هى إلا بيان لمنهج الدعوة الجديدة ، والتهيئة لها ، وبيان موقف الكفار منها ، فلا بد من قرآن تعبدى خالص يناجى فيه المؤمن ربه ، فنزلت سورة (فاتحة الكتاب) التى سماها الرسول الكريم (أم الكتاب) وقال : " لا صلاة إلا بأم الكتاب " ، كما قال عنها : إنها تعدل ثلث القرآن ، وأجمع المفسرون على أنها اشتملت على كل المعانى التى جاءت مفصلة فى القرآن كله ، حتى إذا قرأوها فكأنما قرأوا القرآن كله.

بعد أن استعرضنا هذه السور الخمسة ، هل نرى ترابطا يفوق ذلك الترابط الذى يسودها جميعا ، وذلك التناسق فيما بينها التى يجمع بينها فى عقد فيجعل منها وحدة واحدة ، فهو ترابط يساير تطور سير الرسالة الجديدة ، وتسلسل أحداثها ووقائعها ؛ إذ تبين سورة (العلق) فضيلة العلم ، وأنه قوام الدعوة الجديدة ؛ وإذ ينكر الكفار الوحى وما نزل به على محمد ، ويصفونه بالجنون ، فتنزل سورة (القلم) لتؤكد فضيلة العلم وتتفى عن الرسول ﷺ صفة الجنون، بل تصفه بأنه على عظيم ؛ ثم تنزل سورة (المزمل) فترسم للمؤمنين منهاجا تربويا يلتزمونه لضمان نجاح دعوتهم ، حتى إذا تحقق ذلك نزلت سورة (المدثر) لتأمر الرسول ومن آمن معه بالجهر بالدعوة ، وإنذار القوم من مغبة ما هم عاكفون عليه . ولما كان المنهج التربوى يتطلب طقوسا معينة وصيغا محددة ، توحيدها لذلك المنهج ، وعدم الاجتهاد والتفرق فيه، نزلت سورة (فاتحة الكتاب) لتكون هى عماد قيام الليل

وتلاوة القرآن.

ثانيا : ترتيب التلاوة :

بعد أن كان القرآن الكريم - فى ترتيبه النزولى - منهجا لتأسيس دعوة جديدة ، وأسلوب إقناع بعقيدة سماوية ، وطريقة تيشير وإنذار ، ودحض لمنطق الإلحاد والكفر ، وتدرجا بالكافرين والمشركين إلى مرتبة الإيمان والتصديق.

نجده فى ترتيبه المصحفى - حيث يتلوه المسلمون ويستظهرونه، وبه يتعاملون ويتقاضون - أسلوب حياة ، وبناء حضارة ، ودستورا للعالم يكفل الوفاء بكل احتياجاته ومتطلباته . وما علينا إلا أن نسوق - فى هذه العجالة - شيئا من ألوان الترابط والتناسق بين بعض السور فى ترتيبها المصحفى ، على النحو المتقدم فى ترتيب النزول.

فقد افتتح الله - تبارك وتعالى - كتابه الكريم بسورة (فاتحة الكتاب) لأنها جمعت مقاصد القرآن جميعها . ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس ، والواقية ، والكنز ؛ فصارت كالعنوان ، وما يعرف لدى البلاغيين ببراعة الاستهلال . وعنها يقول الحسن البصرى : " إن الله أودع علوم الكتب السابقة فى القرآن ، ثم أودع علوم القرآن فى المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فى الفاتحة ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة " .^(١)

(١) شعب الإيمان للبيهقى : ٢ / ١٨٧.

ويقول الطيبي ^(١) : " وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة ،
فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً ، فإنها واقعة في مطلع
التزويل ، والبلاغة فيه أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغي
أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق " . ^(٢)

أما سورة (البقرة) فقد افتتحت بقول الله - تعالى - : ﴿الم . ذلك
الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ ^(٣) ، وفيه إشارة إلى الصراط المستقيم
في قوله في الفاتحة : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ^(٤) . فإنهم لما سألوا
الله الهداية إلى الصراط المستقيم ، قيل لهم : ذلك الصراط المستقيم الذي
سألتم الهداية إليه ، فقد روى عن علي بن أبي طالب - كرم الله
وجهه - أنه قال : " الصراط المستقيم كتاب الله " ^(٥) . وقال الخوئي ^(٦) :
" أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة (الفاتحة) ، لأن الله - تعالى -
لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : " هذا
الكتاب هدى لكم ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب
المسئول " . ^(٧)

^(١) الحسين بن عبدالله بن محمد الطيبي ، أحد كبار علماء الحديث والتفسير واللغة ، توفي
سنة ٧٤٣ هـ . (الدرر الكامنة : ٢ / ١٥٦) .

^(٢) شرح الكشاف للطيبي : ٢٩ / ١ (خ) .

^(٣) سورة البقرة : الآية الأولى .

^(٤) سورة الفاتحة : الآية ٧ .

^(٥) جامع البيان : ١ / ١٧٣ ، والمستدرک : ٨٣ / ٤ .

^(٦) أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر ، توفي بدمشق سنة ٦٢٧ هـ . (شذرات الذهب :

٢٥ / ٣) .

^(٧) البيان في تفسير القرآن للخوئي : ٢٧ / ٢ .

وكما ختمت (الفاتحة) بدعاء المؤمنين بألا يسلك الله بهم طريق المغضوب عليهم ، ولا الضالين إجمالاً ، ختمت سورة (البقرة) بدعائهم بألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخظة بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، وما لا طاقة لهم به تفصيلاً في قوله - تعالى - ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ^(١). وقد روى أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يقول (أمين) في آخر البقرة ، كما هو مشروع في آخر الفاتحة ^(٢).

ولما كانت سورة البقرة هي أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال، حتى سميت (فسطاط القرآن) ^(٣) الذي هو المدينة الجامعة ؛ كما أنها أطول سورة في القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال ، وأنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب البدء بها وتقديمها على جميع السور ^(٤).

أما سورة (آل عمران) فهي قرينة سورة (البقرة) وكالمكملة لها، فعملاً بقاعدة أن كل سورة تعد شرحاً لما أجمل في السورة التي قبلها ، نلاحظ من مظاهر الترابط بينها والتناسق ما يلي :

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٥٠٩.

(٣) سنن الدارمي : ٢ / ٤٤٦.

(٤) تناسق السور : ٨٢.

١- لما ورد فى سورة الفاتحة ذكر اليهود والنصارى على حسب ترتيبهم فى الزمان ، حيث فسر الرسول الكريم (المغضوب عليهم) باليهود ، و(الضالين) بالنصارى ^(١) ؛ فقد عقب - سبحانه - بسورة (البقرة) وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، ثم تلى بسورة (آل عمران) وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى.

٢- افتتحت (البقرة) بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ . ^(٢)

٣- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ ^(٣) ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾ ^(٤)

٤- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ^(٥) ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم

^(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٦ .

^(٢) سورة آل عمران : الآية ٣ .

^(٣) سورة البقرة : الآية ٤ .

^(٤) سورة آل عمران : الآيتان ٣ ، ٤ .

^(٥) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم . يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون . فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزممت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . (١)

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٥٢ - ١٥٩ .

٥- أجمل الحديث عن الشهداء فى (البقرة) بقوله : ﴿ أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ ^(١) ، وفصل فى (آل عمران) بقوله : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ﴾ ^(٢)

٦- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ ^(٣) ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ ^(٤)

٧- أجمل فى (البقرة) فقال : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ^(٥) ، وفصل فى (آل عمران) فقال : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ^(٦)

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١٦٩ - ١٧١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٩٦ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

٨- ذكر في (البقرة) دعوة إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ﴾ ^(١) وذكر الاستجابة في (آل عمران) بقوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ . ^(٢)

أما سورة (النساء) فتضمنت أحكام العلاقات بين الناس كالنسب و الصهر ، وما يتعلق بهما من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام . . إلى غير ذلك من العلاقات ؛ أما ارتباطها بما قبلها فواضح جلي ، حيث تعد شارحة أيضا لما تقدم من مجملات :

١- أجمل - سبحانه - في (البقرة) بقوله : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ^(٣) ، ثم فصل في (النساء) فقال : ﴿ اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تتساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ . ^(٤)

٢- أجمل في (البقرة) آية اليتامى ، وآية الوصية ، والميراث ، والوارث بقوله : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ ^(٥) ، وفصل كل ذلك في (النساء) في الآيات : ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٢ ، ١٧٦ .

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٦٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢١ .

(٤) سورة النساء : الآية الأولى .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٣٣ .

٣- أجمل في (البقرة) نكاح الأمة بقوله : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ﴾ ^(١) ، وفصل في (النساء) ذاكرا شروطه بقوله : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحسن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ . ^(٢)

٤- أجمل في (البقرة) ذكر الصداق بقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ﴾ ^(٣) ، وشرحه مفصلا في (النساء) بقوله : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ . ^(٤)

وأما وجوه اعتلاق (النساء) بـ (آل عمران) فمنها :

١- أن (آل عمران) ختمت بالأمر بالتقوى في قوله - تعالى - : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ ^(٥) ، وافتتحت (النساء) به في قوله :

^(١) سورة البقرة : الآية ٢٢١ .

^(٢) سورة النساء : الآية ٢٥ .

^(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

^(٤) سورة النساء : الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

^(٥) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠ .

﴿وانتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ . (١)

٢- ذكر في (آل عمران) قصة غزوة أحد مستوفاة ، وذكر في (النساء) ذيلها وهو قوله سبحانه : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين...﴾ . (٢)

٣- ذكر في (آل عمران) قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحجة بخلق آدم ، وفي ذلك تبرئة لأمه ، خلافا لما زعم اليهود ، وتقرير لعبوديته ، خلافا لما ادعته النصارى ، وذكر في (النساء) الرد على الفريقين معا ، فرد على اليهود بقوله : ﴿وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾ (٣) ، وعلى النصارى بقوله : ﴿لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ إلى قوله : ﴿لن يستكف المسيح أن يكون عبدا لله﴾ . (٤)

٤- لما ذكر في (آل عمران) خطابا للمسيح : ﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾ (٥) ، رد في (النساء) على من زعم قتله بقوله : ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا

(١) سورة النساء : الآية الأولى

(٢) سورة النساء : الآية ٨٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٥٦ .

(٤) سورة النساء : الآيات ١٧١ - ١٧٢ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٥٥ .

اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه»^(١).

ومن أجل صور الترابط والتناسق بين السور الأربعة المتقدمة ،
أن الله - سبحانه - لما ذكر اليهود والنصارى على حسب ترتيبهم
الوقتى فى (الفاتحة) ، قص فى كل سورة مما بعدها حال كل فريق على
الترتيب ذاته ، فكانت (البقرة) مختصة باليهود ، وكانت (آل عمران)
مختصة بالنصارى ، وجاءت (النساء) ، وفى صدرها ذكر اليهود فى
قوله - تعالى - : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾^(٢) ،
وفى ختامها ذكر النصارى فى قوله : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى
دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول
الله ﴾^(٣).

(١) سورة النساء : الآيتان : ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤٦ وما بعدها .

(٣) سورة النساء : الآية ١٧١ .